مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد9/العـدد: 02 (2021)، ص 239- 264

المعجم الصُّوفي في بُردة محمد بن سعيد البُوصيري- دراسة مُقَارِنة.

The mystical dictionary of Borda of Mohammed bin Said Al -Boussayri - Comparative Study.

الدكتور الحسين سريدي[1]

[1] المدرسة العليا للأساتذة، بشار (الجزائر)، sridihocine@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/08/31 تاريخ القبول: 2021/09/05 تاريخ النشر: 2021/10/07

ملخص:

يمثّل المعجم الصُّوفي هندسة التَّركيب المشكّلة للجدار الأسلوبي المبني على الإعراض عن الدُّنيا وزينتها، إذْ ينفرد كلُّ متصوّفً بمعجم صوفيٍّ يرتكز على فلسفة الوجود، والهدف من بحثنا إبراز المادة الخام لعلاقة المتصوّف بجملة الرؤى، والأنظار الفكريَّة، وهذا ما يجعله في دوامة من التَّجاوب مع عالم الملكوت.

يتجلّى المعجم الصُّوفي للمبدع في تكامل عناصر أسلوبيَّة بين شعراء كثر في بيئة واحدة؛ لأنَّ فهم دلالة الكلمة لا يتحقَّق في غياب حقلها الدَّلالي. ومن ثمَّ خلصنا إلى نتائج منها: أن خلق الألفاظ الصُّوفيَّة يتَّصل اتصالاً مباشراً بفلسفة الشَّاعر الهادفة إلى رسم الأبعاد الاجتماعية، والسيكولوجية المرتبطة بعشق الذات الرَّبانيَّة والخلود في محبّتها.

كلمات مفتاحية: المعجم الصُّوفي.، المتصوِّف.، الإبداع.، الدّلالة.، الحقل الدّلالي.

Abstract:

The mystical dictionary represents the structural geometry of the textural wall which based on moving away from life and her decorating.Each mystichas a mystical dictionary grounded on the philosophy of existence, and our objective is to highlight the raw material of the mystic's relationship to the visions.Which make him in a spiral of responding to the world of divine.

The mystical lexicon of the creator is reflected in the integration of stylistic elements among many poets in a single environment, because the word is not understood without its semantic field.Where we concluded that: The creation of mystical words is directly related to the poet's philosophy which aimed at mapping his social and psychological dimensions associated with the divine self- love and immortality in her love.
Keywords: Poetic dictionary; the mystic; the creativity; the connotation; semantic field.

المؤلف المرسل: الدكتور الحسين سريدي،

يرتبط المعجم الصُّوفي بتجربة الشَّاعر، ورؤيته النَّابعة من قدسيَّة المعرفة الفرديَّة، المبنيّة على النَّزعة الفلسفيَّة المستترة وراء صفاء القلب والروح والخلق، ومن هذا المنطلق تقع عين النَّقد على تتبُّع معجم شاعرٍ ما، بالنظر إلى شيوع مراتب الحبِّ في قصائده؛ قصد اكتشاف دلالات اللَّفظ وتبيان غناه مِن فقره، تنوُّعُه مِنْ رتابَتِه، فهل يمكن التماس المعجم الصُّوفي لدى البوصيري دون مقارنته بشاعرٍ آخر؟، أم أنَّ الأمر مرده إلى تكامل عناصر أسلوبيَّة بين شعراء كثر في بيئة واحدة؟، وهل يمكن فهم دلالة الكلمة بمعزلٍ عن حقلها الدَّلالي؟.

ولفكِّ اللغز القائم من رحم تلك التَّساؤلات يمكن اقتراح فرضيات، منها: أنْ يتعالق التَّصوُّف بهوى النَّفس؛ إذْ لا ينطفئ نورُهُ الوهَّاج، ولا يهدأُ لصاحبهِ بالٌ باعتباره ساعياً في تدريب نفسه على العُبُوديَّة بمقدار هواه، ومن ثمّة تتربَّى النَّفس على مَلَكة الأخذ بالمجاهَدَة، والتَّرويض الدِّيني؛ حتى يتم تهذيب الصّفات الحيوانية التي ترتبط بالصُّور الحسيَّة المخَزَّنة في اللَّاشعور.

جعل البوصيري من النَّزعة الدِّينيَّة تَميمةً لا متناهية في رسم فضاء المناجات، والحاجات؛ لأنَّ هذه الأخيرة كفيلةٌ بشفاعة المصْطفى؛ فبدلاً من أنْ

تكون اللُّغةُ عمليَّة خرْق بنَّاءة بإيماءاتها، وإشاراتها أَلْفَيْنَاهَا طُقُوساً مُرْتبطة بعوالم غَيْبيَّة كاشفةٍ عن عالم المحبّة، والشّوق في قوالب رمزيَّة بارزةٍ بفعلِ تصاعد زفرات الحنين، والرجاء، والتَّوسّل؛ لكسب شفاعة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ومن أهداف البحث: معرفة العلاقة بين المعجم الصُّوفي والحقول الدَّلاليَّة التي لها دورٌ فعَّالٌ في خلق جوٍّ تفاعليّ تأثيريّ، يهدف إلى تفعيل الدَّور الفلسفي الذي يكسو الألفاظ حكمةً، ورجاحةً تحملُ في طيَّاتها رحابةً وجدانيَّةً تتكاملُ بفضلها لغةُ الهوى مع لغة العقل؛ القاضيتان بخلق محبةٍ منقطعة النظير.

هذا وساقتنا أفكار البحث لرسم منهجية تبعاً لمحتوى البحث؛ إذ استفتحناه بمقدِّمة متبوعةٍ بتحديد ماهيةٍ المعجم، والقاموس، ومدى شيوعهما، إذْ تفرع إلى قسمين: مقومات المعجم، والقاموس، والفرق بينهما من حيث الاستخدام، والدَّلالة وصولاً إلى الخواص الصُّوفيَّة في البردة البوصيريَّة؛ حيث تعدَّدت منابتها، ومراميها، وختمنا الورقة بأهم النتائج، والاقتراحات المتعلِّقة بالمعجم الصُّوفي.

2. بين المعجم والقاموس- استعمالاتهما ودلالة كل منهما:

1.2 مقومات المعجم وفوائده:

لا تتحدد القيمة الدَّلالية للفظة الواحدة في معزل عن مقابلتها بألفاظ أخرى؛ لأن الهدف الأساسي هو جمع كل الكلمات التي تخص حقلاً معنياً، ومن ثمة الكشف عن صلاتها المتقاربة من حيث الدلالة. [1] (صافية زفنكي، 2003، ص 29).

(1) ينظر، صافية زفنكي، التطورات المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، د.ط، 2003، ص 29.

تتميز الألفاظ لدى الصوفيَّة بمرجعيَّات فكريَّة ذات مستوى معجمي يجمع كلاً مركباً من ظواهر نحويّة، صرفيَّة، وغيرها، فإنْ كان المعجم الصُّوفي لدى الشّاعر يشكل زمرةً من روافد اللُّغة الرَّامزة، فهل أنَّ ذلك كفيلٌ دون تطور اللفظة، وتماشيها مع الحضارة، وتغيُّر الظروف البيئية للمبدع؟.

يقوم المعجم الصُّوفي على رصد الرموز العامة، التي ترتبط بالتاريخ الأدبي، والاجتماعي، ومَا له علاقة بأساطير وحكايات الأمم، والحضارات، كما يهتم بمتابعة الرموز الخاصة، القائمة على أحاديَّة الاستعمال اللغوي. [2] (فايز الداية، د. س، ص 344).

تعود فائدة دراسة المعجم على لغة الشعر بالنَّفع، والتطوُّر لما له من أهمية في معرفة الجوانب الخفيَّة لدلالة الألفاظ، وتنوع حقول استعمالاتها، ومراميها، وربطها بالمرجعية الثقافية، والفكرية، ومن ثمة يكتسي العمل الشعري دلالةً متنامية المنحى اللّساني، الذي يجعل اللُّغة مواكبة للتطور الحضاري، والسياق التركيبي الذي يصفُ الظواهر، ويُحاكي الواقع، والموجودات، المرتبطة بفلسفة الوجود.

2.2 الفرق بين المعجم والقاموس ودلالة كل منهما:

ساقت الدّراسات اللُّغوية الحداثية الباحثين إلى ظهور عدد من المفاهيم الجديدة التي بفضلها تم الاهتداء إلى التمييز بين مفهُومَيْن لكلمة (معجم)؛ حيث يتعلق المفهوم الأوَّل بمجموع غير محدود من الألفاظ التي تمتلكها جماعة لغوية، وهذا ما اصطلح عليه اللّسانيون بالفرنسية: (Lescique)، أما المفهوم الثَّاني فينظر في مجموعة من ألفاظ مختارة، ومرتبة في كتابٍ ما ترتيباً معيناً، وهو ما

(2) ينظر، فايز الداية، علم الدلالة العربي – النظرية والتطبيق، دار الفكر، بيروت، ط02، د.س، ص 344.

اصطلح على تسميته بالفرنسية: (Dictionnaire) [3] (علي القاسمي، د. س، ص 11).

يتجلى الفرق بين المفهومين من خلال دلالة الأول على جملة المفردات التي تصب في سياق الجماعة الواحدة ذات اللّسان الواحد، بينما يدلُّ الثَّاني على ما تتضمنه مفردات اللُّغة مع شرحها، وقد تكون اللُّغة في المعجم موحدة، أو مزدوجة.

لكن اجتهادات اللسانيين في المصطلح، بإعادة تعريف لفظتي (قاموس) و(معجم)، هي محاولات مشروعة؛ لأنها تثري اللُّغة، وتجعل الباحث يبدأ بتعريف المصطلح، ثم يشرع في التَّحليل، وكان الهدف من هذه الوجهة توخي الدّقة في التعبير عن المفاهيم تطبيقاً لمبدأ التَّرادف الذي يجعل المعنى الواحد موزعاً بين عدة مفردات. [4] (علي القاسمي، د.س، ص 13).

يتضح من خلال القول السابق أنَّ القاموس يتدرج في الكشف عن المفهوم إجمالاً، ثم يأتي دور المعجم للتمثيل في الجزئيات، وتحليل المفاهيم، وتفسيرها؛ بغية معرفة دلالة اللَّفظ، ومدى مطابقته لعمومية المعنى، أو شموليته، حتى يصبح المعنى خالداً لهُ حضوره في لغة العرب، وكلُّ هذا التدرج إنما هو عملية هادفة إلى حماية التراث اللغوي من الزوال، والاندثار.

3. الخواص الصوفيَّة في بردة محمد بن سعيد البوصيري:

1.3تمهيد:

يشكّلُ حقل التصوُّف في بردة البوصيري هاجساً للبحث عن مظاهر الجمال المطلق، أمَّا عوالم النَّقاء الرُّوحي فتتجلَّى بقدر ما يوحي بالبحث عن تعويض حقل

(3) ينظر، علي القاسمي، المعجمية بين النظرية والتطبيق، دار الفكر، بيروت، د.س، ص 11.
(4) ينظر، علي القاسمي (م. ن)، ص13.

الألفاظ الدينيَّة، التي تعمل على ترابط العلاقات الروحيَّة، والصِّلات الحميميَّة التي فقدها الشاعر، فإذا أحسَّ بذلك فإنه يركض وراء الكَلَف باقتحام المجهول، والبحث عن لغة جديدة مستخدماً مفردات المعجم الصوفي.

انفردت البردة البوصيريَّة بوحدات لغويَّة تداولها شعراء آخرون، إذ تصاعدت درجات جماليتها ووظائفها التعبيرية في سياقات عديدة، حافظت على كيانها، ورتابتها، ومِنْ ثمَّة فرضت بقاءها، وهيمنتها.

استخدم البوصيري عدداً من المفردات المنسجمة والموقف الذي يحاول التعبير عنه، إذ أنَّ لكل نتاج إبداعي نسيجاً لغوياً خاصاً به، يوظف فيه الألفاظ توظيفاً تتفاعل معه تركيبته الروحية وتتعاون في إنجازها قدراته الفنيَّة، وفلسفته في تركيب لغة النص، وهذا ما يتماشى مع روح التَّجديد، وذوق الصُّوفيَّة.[5](نافع محمود، 1990، ص27).

لجأ البوصيري إلى التعبير عن التجربة الروحية بفضل ما أمْلَتْهُ عليه شاعريته المنسجمة، والموقف الشعوري، إذ اتَّسع أفقها في النظرة الفلسفيَّة، التي منحتِ العمل الإبداعي كسوة زهديَّه، دينيَّة، تفجَّرت منها طاقات شعرية ملفوفة بنفحاتٍ روحانيَّة بارزة في ألفاظ النُّصح، والوعظ، والإرشاد.

يخرج البوصيري من طبع الكلمات المألوفة بأوضاعها القاموسيَّة المتجمدة إلى طبيعة جديدة، يفرضها عليه تطور المعاني، والدَّلالات، التي خضعت لها التجربة الشعريَّة (...) ومن ثمة يحقّق في نفس السَّامع وجوداً، وتداعياً مناسباً.[6] (رشيد قحطان، 1981، ص 97).

(5) ينظر، نافع محمود، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الشؤون الثقافية العامَّة، بغداد، د.ط، 1990، ص 27.

(6) ينظر، رشيد قحطان، اتجاهات شعر الهجاء، دار المسيرة، بيروت، د.ط،1981، ص 97.

تتعدَّد الموضوعات الشعريَّة لدى الشاعر، لكن درجات التعبير عنها مختلفة بدليل أَنَّ خلق الألفاظ الشعرية يتَّصل اتصالاً مباشراً بفلسفة الشَّاعر مِنْ دور في رسم الأبعاد الاجتماعية، والسيكولوجية، إذْ أنَّ هذه الأخيرة كَفِيلةٌ بتنوُّع مقصديَّة التَّصوُّف التي تعدُّ الغذاء الرُّوحي في تجربته.

يشكل التصوُّف المصدر الأساسي للإلهام الشّعري، وهذا الأخير يصنع التَّجربة الفنيَّة الممزوجة بالحداثة، والتَّاريخ الذي يشكل جوهر العمل الإبداعي في بعض مراميه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ العمل الشّعري يزداد خصوبة بفضل التَّأمُّل الفلسفي الباحث في ماهية الشَّيء، أمَّا الإشارات الكاشفة عن معنى اللَّفظة، ومَبْنَاها تشكّل ظلاً يعمل على تخصيب التَّجربة الشعريَّة ذات النماء المتواصل.

فما المكامن الأسلوبية التي تَتَبَّعها البوصيري في صناعة المعجم الصُّوفي الملون بالوعظ، والإرشاد؟.

2.3 ارتباط المعجم الصُّوفي بالحقول الدّلاليَّة في البردة البوصيرية:

يعمل المعجم الصُّوفي على رصد الكلمات ذات الحقل الواحد، ومقارنتها بلغة الشاعر، ومن ثمة ربط كل كلمة بمعناها، وإيضاح علاقتها بمدلولها، وهذا إِنْ دلَّ على شيء، فإنما يدل على أنَّ المعنى المعجمي يشكّل بوابة تفكيك النص الملغَّم بالمعاني الأساسية لتركيبة العبارة الشّعرية، المزَرْكشة بقدرة الشَّاعر على التَّلاعب بالمفردة، وكسوتها بكسوة زهديَّة، تصوفيَّة. فبناءً على ذلك: ما الألفاظ التي جعلت المعجم الصُّوفي لدى الشاعرين الألبيري والبوصيري في تداخل مستمر؟.

للإجابة على هذه الأسئلة، وأخرى نتتبَّع الحقول الدَّلالية* الآتية:

A. حقل الزُّهد والتَّصوُّف:

يعدُّ الزهدُ فجر حقل التَّصوف، إذْ نشأ بعد الفتوحات الإسلامية بموجب انصراف العامة عن ملذَّات الدُّنيا؛ طمعاً في الفردوس الأعلى، كما يلتقي عالم الزهد بالتصوف لدى الشاعرين الألبيري والبوصري في جملة الألفاظ التي جعلتهما في دوَّامة مع محاسبة النَّفس، ولزوم الفضائل، وإيثار التقوى، وفي هذا يقول البوصري:

والنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ علَى حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تُفْطِمْهُ ينْفَطِمِ. [(7)](البوصيري، 2007، ص 227).

ويقول الألبيري:

وَنَفْسَكَ ذُمَّ لَا تَذْمُمْ سِوَاهَا بِعَيْبٍ فَهْيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمْمتَا. [(8)] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 78).

يظهر الزهدُ لدى الشاعرين من خلال العُزوف عن شرور الدُّنيا، لما في ذلك من تقرب إلى الله، أمَّا التَّفوُّق لديهما يتجلى من خلال إصلاح أحوال النفس الإنسانيَّة؛ للوصول بها إلى مراتب الكمال الإنساني، في حين تظهر شعرية العمل

* **الحقول الدَّلاليَّة:** هي نظريةٌ تثبت أن استيعاب معنى كلمةٍ ما مرهونٌ بفهم مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليًّا، وأهم ما يميز أنصارَ هذه النظرية هو اتفاقهم على ضرورة مراعاة السّياق الذي تردُ فيه الكلمة، ومن ثمة فإن دراسة المعجم يجبُ أن تتم من خلال تصنيف الإبداع إلى حقولٍ دلالية. (ينظر، علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري- من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص 42).

(7) البوصري، الديوان، دار المعرفة، بيروت، د.ط، 2007، ص 227.

(8) أبو إسحاق الألبيري، الديوان، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، د.ط، 1991، ص 78.

الإبداعي لدى البوصيري بفعل تصاعد زَفَرات الغنائيَّة التي قادَتْهُ إلى تصحيح سلوك النَّفس بالعزوف عن المشاغل، والمبررات التي تحول دون إصلاح ذاته.

لا يَعْدُو الزُّهد في رأي أهل التَّصوف أَنْ يكون مقاماً من المقامات التي يصلُ بها الصوفي في طريقه إلى ربّ الملكوت، وهذا ما يعني أَنْ يكون قلب الإنسان متعلقاً بالله تعالى، وزاهداً فيما سواه. [9] (علي أحمد الخطيب، 2001، ص 119).

يرى دارسو الأدب أن للتَّصوف جانبين: عملي ظاهر، وروحي باطن؛ فالأول منهما يشمل مجاهدة النَّفس، وعزلها عن الشهوات؛ لتبدوَ في صورة الفطام المتماشية وتقوى الله، أما الجانب الآخر فيتوافق مع المجاهدة، والتَّوكُّل على الحي القيوم. (10) (حسن الشافعي، 2007، ص 24).

تتجلى المعاني العاملة على رسم حقيقة التَّصوف لدى الشاعرين بفضل معانقة الذَّات الإلهيَّة، فعلى سبيل المثال يقول الألبيري:

وَنَادِ إِذَا سَجْدَتْ لَهُ اعْتِرَافاً بمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بْنُ مَتَّا. [11](أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 79).

يُعَدُّ التَّمسُّك بحبل الله المتين باعثاً أساسياً للتَّصوُّف؛ لذلك شاع بين الشعراء اتّباع سبيل التقوى، والورع، بالإضافة إلى الشُّعور بخيبة الأمل التي جاءت مع شيوع الغناء، واللَّهو، ومن هذا المنطلق خَلَقَ كُلٌّ من الألبيري، والبُوصيري مناخاً قائماً على الإسراف في الدعاء لله سبحانه، وتعالى، وبفضل ذلك عاش المجتمع في ظلّ نظام إسلامي، له مردود طيب في صلاح البلاد، والعباد.

(9) ينظر، علي أحمد الخطيب، رياض الأدب الصوفي، دار نهضة الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2001، ص 119.

(10) ينظر، حسن الشافعي، التَّصوف الإسلامي، دار السلام، القاهرة، د.ط، 2007، ص 24.

(11) أبو إسحاق الألبيري، (م. س)، ص 79.

سطعت شمسُ الزُّهد، والتَّصوف لدى البوصيري بفضل التَّطلُّع إلى معانقة الروح، كما كان ذلك ردة فعل مناقضة لتيار اللَّهو، والمجون الذي عمَّ بِقَاع الأرض، بالإضافة إلى أنَّ تلك الأفكار واجَهَتْ جميع دواعي الانحراف الأخلاقي التي أفْرَزَت ريحاً عاتية من التَّحرر، والإسراف في معانقة الدنيا، ومغرياتها.

انتشرت ظاهرة الزُّهد في عصر الانحطاط بفضل الظروف الاجتماعية، والاقتصادية، التي جعلت البوصيري يتأمل في حقائق الكون، ويُعِيدُ النَّظر في مسار حياته، إذْ غرس في عقول الناس متعة الانصراف عن الحياة الفانيّة، وإلزام النفس حب الحياة الباقية.

عبر أغلب شعر البوصيري على حقيقة العصر، فالشّعر فنٌّ لغويٌّ يعتمد على الكلمة، أو اللَّفظة في تصوير العوالم المختلفة، باعتبارها أساس البناء الشّعري؛ لأن الإبداع أكثر الفنون اعتماداً على الكلمة، وإيحاءاتها. [12] (صلاح فضل،1987، ص 34).

يسمو الشّعر بفضل تزايد سحره بين اللَّحظة، والأخرى؛ فهو البناء الذي يشيِّد صرحَه شاعرٌ ذو إحساس راقٍ؛ لأن المقدرة الصُّوفية تتأسَّسُ في الحضور الكمي للمفردات المشحونة بالطاقات التعبيرية، التي تَرَاءَتْ للشاعر في تأثُّره بملكوت الله سبحانه وتعالى.

ليس هناك معجم صوفي، أو شعري موحد في كل زمان، ومكان ضمن لغة ما، وإنما هناك معجم متطور، محكوم بشروط ذاتيَّة، وموضوعية، فالشاعر

(12) ينظر، صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافيَّة العامة، بغداد، ط03، 1987، ص 34.

الواحد نفسه يكون له معجم بحسب المقال والمقام. [13] (محمد مفتاح، 1985، ص 62).

يتشكَّل المعجم الصُّوفي في جوف ثنائية الأصالة، والمعاصرة؛ إذ يعمد الشاعر إلى خلق مفردات جديدة في سياق تركيبي دلالي، مردُّه إلى عصور سابقة، بَيْدَ أنَّ اللَّفظة يجب أن تَتَماشى، وأحوال المجتمع.

B. حقل الشيب والشَّباب:

تحدث كلٌّ من البوصيري والألبيري عن الشيب أو الشَّباب، إمَّا بالتصريح، أو بالإشارات الدَّاعية إلى تفعيل حيز اللُّغة المُنْزاحة؛ لخدمة المعجم الصُّوفي، أما أثر الحقل الدَّلالي فيتمثل أساساً في ذكر الموت، والإيمان به؛ لأنَّ الرحيل الذي يصاحب الموت يعبِّر عن ضعف الإنسان، ورغبته في مفارقة الحياة الزائلة، ومن ذلك: اقتران حقل المشيب بعبارات الوقار، والعَفَاف، والغنى الأخلاقي، بالإضافة إلى قطع اللَّذات، والاستمتاع بالشهوات، وفي هذا يقول أبو إسحاق الألبيري:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابي وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّا. [14] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 80).

ويقول أيضاً:

وَنَادَاكَ الكِتَـابُ فَلَمْ تُجِبْهُ وَنَبَّهَكَ المشِيْبُ فَمَا انْتَبَهْتَا. [15] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 80).

يقول البوصيري:

إنّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ في عَزَلٍ وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ في نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ.

(13) ينظر، محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، د.ط، 1985، ص 62.

(14) أبو إسحاق الألبيري، (م. س)، ص 80.

(15) أبو إسحاق الألبيري، (م. ن)، ص 80.

فَإنَّ أَمَارَتِي بِالسُّوءِ مَـا اتَّعَظَتْ مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيْرِ الشَّيْبِ وَالهَرَمِ. [16] (البوصيري، 2007، ص 228).

شكَّل حقل الشَّيب، والشَّباب بوابةً للتَّذمر مِنْ مُغْرَيَات الحياة الفانية، إِذْ كان القلق، واليأس، والقنوط من الصّور المصاحبة لتلك الحالة النفسيَّة التي بَلَغت أعلى مراتب الاهتمام، كما كان لها حصة الأسد من الشيوع، إِنْ بلفظ الشَّيب، أو بمعناه، ومن ثمة تنْفصل مرحلة الشباب عن المشيب باعتبار الأولى منهما مرحلة لهو، ودعابة، بينما تعدُّ الثَّانية مرحلة وقار وضبط أفعال النفس الإنسانيَّة، إِذْ أنَّ جماليَّة المعجم الصوفي لدى الشاعرين ترتكز على الموعظة، والتَّرغيب في الفضائل، والتَّنفير من الرَّزائل.

أكثر الألبيري من البكاء على حال الشَّاب الذي يصرف وقته لاهياً مرحاً، إِذْ خاطب الواحد خطاب الجماعة، وكلُّ ذلك من باب التَّذكير بيوم الحسرة، كما أَنَّ اضطراب مشاعر الإنسان سببُه الغَفْلةُ، المؤدِّيَّة إلى الفتنة؛ لذلك وظَّف الشَّاعران أفعالاً تدلُّ على الاستمرارية التي يصاحبها تقلُّب الإنسان في أفعاله، ولما كانت الأفعال مبنية للمعلوم اقترن توظيفها بِعِلْم النَّاظمين بما يجْري في وقتهما من مجاوزة، وانحراف، وبُعْدٍ عن طريق الرَّشاد.

يحمل حقل الشّيب، والشباب دلالات من بينها: التَّضرع إلى الله سبحانه وتعالى، والتَّوبة قبل تجاوز الحياة الدنيويَّة، بالإضافة إلى أَنَّ مرحلة الشباب التي وردت بوجه التَّلميح اقترنت بالسرعة والزوال، أمَّا إسناد الفعل (اتَّهَمْتُ) إلى المتكلم - في قول البوصيري - فهو من باب القوة التي تصاحب الإقرار بارتكاب الذنوب والمعاصي، بالإضافة إلى الاستعداد إلى التَّغيير الذي ظل يشغل مخيلة النَّاظم حال الأسف على التَّفريط في أمر الله سبحانه، وتعالى أمَّا لفظة (الجهل)

(16) البوصيري، (م. س)، ص 228.

فتوحي بتراكُم المتاعب، والأعباء المضادة للعبادة في مرحلة الشباب، ومن ثمة كان لزاماً على الشاعر إبراز الدَّور الفعال الذي يغير المسار الأخلاقي لحياة المتعبّد فتسير نحو الأفضل، وفي هذا الشَّأن يقول الألبيري:

وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلاً فَمَالَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا. [17] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 79).

يتعجَّب الشَّاعر من أفعال الشيخ الذي تجاوز مرحلة الفتوة بحسرة على الأيام الراحلة، إلى درجة أَنَّ الأسى ظلَّ يصاحب نفسيته، وهو حائرٌ في حالة الشَّباب، ومن ثمة عَمَدَ إلى أسلوب الاستفهام الذي جعل نفسه تتوانى في الحزن، والرَّجاء غير المصرح به؛ والهدف من ذلك هو التَّطلُّع إلى الإقلاع عن شرور النفس، والبعد عن المحرمات.

يظهر في أسلوب الشاعرين: الألبيري، والبوصيري أنهما يرفُضان التَّمتع بالملذات التي يمارسها الشباب؛ لذلك اقترنت الألفاظ لديهما بأسلوب الأمر الدَّال على الطلب المباشر، ومن ثمة كان لزاماً عليهما نفي تحقيق الاطمئنان، أو السُّرور يوم الحساب، بالإكثار من توظيف النَّفي الذي يهدف إلى فقدان الأمل في عودة مرحلة الشَّباب مرة أخرى، ثم أردف البوصيري تلك الأحداث بذكر الموت، إِذْ صاحبه حزنٌ عميق بعد غزو المشيب للإنسان المفرّط في طاعة الله.

ومن الصور المؤدّية إلى تغيير حياة الإنسان إلى الأحسن، توظيف الفعل (أرى) بجميع الأزمنة لأنه يوحي باليقين، والتّأكيد على وصف حالة الشباب بأنها المرحلة التي تحدُثُ فيها الغفلة، وفي هذا يقول:

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْساً ذَاتَ غدْرٍ أَبَتَّ طَلَاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا. [18] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 71).

(17) أبو إسحاق الألبيري، ص 79.

يدعو الشاعر الشَّاب المسلم إلى تذكر يوم الحساب، وتجاوز الغفلة المؤدِّيَّة إلى الانغماس في شهوات الدنيا كالتغزُّل، أو الخلود في الحب الذي نهى عنه الله سبحانه، وتعالى، ومن ثمة تَطَلَّع إلى الحث على الاستغفار في الأبيات الموالية، وهو دَأْبُ البوصيري في الإرشاد إلى ملازمة باب الله سبحانه، بالتَّأكيد على نجاح القيم الدينيَّة، والأخلاقيَّة الدَّاعيَّة إلى التضرُّع، والاستغفار، والفوز بالجنة؛ وفي هذا يقول:

فَيَا خَسَارَةَ نَفْسِي في تجَارَتِهَا لمْ تَشْتَرِ الدّينَ بالدُّنْيَا وَلَمْ تُسِمِ. [19] (البوصيري، 2007، ص 235).

تظهر قوة التّصوف في أسلوب النداء ذي التحسر، والتوجُّع، إذ صاحَبَهُ إحساس عميق بالحزن على عدم الظفر بشفاعة النبي- صلى الله عليه وسلم – حيث شبَّه ذلك بالتجارة المؤدية إلى الخسران المبين في الدنيا، والآخرة، لكن خسارة الآخرة تظهر جلية بدليل الغفْلة، والتَّحرر الذي صاحبه في وقت الشّباب.

C. حقل الذنب والتوبة:

ينْبع مفهوم التَّوبة في الإسلام من قلب إيمان الشَّخص، وعقيدته إِذْ يقترن بصفات المتَّقين أمَّا الذنب فيكون بالخروج عن تلك الآيات البيِّنات، الأمر الذي يفرض على صاحبه المسارعة إلى مغفرة الله، ورضوانه، فمن هذا المنطلق شغل حيزُ الذَّنب لدى البوصيري أغلب موضوعات شعر الزهد، بالتركيز على العواقب الوخيمة التي تنجرُّ عن الندم، إِنْ لم يصاحبه رجوعٌ وإنابَةٌ إلى الله سبحانه، وتعالى، وليس كلُّ شاعر زهد تائب، وإنما ينطوي هذا الجانب على معنى التَّوبة،

(18)أبو إسحاق الألبيري، ص 71.

(19) البوصيري، ص 235.

والتضرُّع للمولى جلَّ شأنُه بالاستغفار، ولوم النَّفس** بُغية ردّها إلى طريق الصواب.

من صور التَّوبة، والإقلاع عن الذنب: الإحساسُ بفناء الذَّات، والتَّقدُّم في السن؛ حيث يشعر الزاهدُ بقرب الأجل، ومن ذلك على سبيل المثال ما حدث مع الألبيري في نهاية حياته، بعدما قاد نفسه نحو الفطرة السليمة؛ بالدعوة إلى الإصلاح، والإقلاع عن ارتكاب المعاصي، ومن أمثلة ذلك قوله:

ولَمْ أَشْرُبْ حُمَيَّا أُمّ ذُفْرٍ وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا. [20] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 78).

يظهر البوصيري أكثر تضرعاً وإقراراً بالذنب؛ لأنه أَرْدَفَ الإقرار بالذنوب، والمعاصي بالتَّأكيد على ذلك وفي هذا يقول:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى أَنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ. [21] (البوصيري، 2007، ص 229).

يظهر الألبيري من خلال البيت السابق متردّداً في الإفصاح عن الذنب، والمعصية، لكن البوصيري أقَرَّ بارتكاب الخطيئات، حتى نفى تعلُّقه بالدنيا، ومفَاتِنِها، فَلَمْ تكن شخصيته متقلبة الأحوال، أو متأرجِحَة المشاعر، بلْ بَدَا متحسّراً، آملاً في رضوان الله سبحانه، وتعالى.

** تؤدّي مناجاة النَّفس إلى معرفة المناطق المظلمة داخلها؛ بمحاورتها، (...) ومحاسبتها، ولومها (...) فكلما زاد النجاح، والمال كلما قَسَت النفس، وانحرفت؛ لأنَّ الشيطان يوسوسُ، والنَّفس تأمر بالسوء، فيجب على الإنسان التمسُّك بحبل الله الذي يمكّنُه من كبح جماح قوَّتها؛ للبعد عن التردُّد، والضلال، وذلك بربط الصلة بالخالق. (ينظر، منال شفيق، حال المتعبّد مع النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، جريدة الحياة المصريَّة، القاهرة، ع: 3719، 29 ديسمبر 2015، ص 05).

(20) أبو إسحاق الألبيري، ص 78.

(21) البوصيري، ص 229.

يبدو من خلال تائية الألبيري مخاطبة الشّاب المسلم بعدم اقتراف الذُّنوب، كما يظهر من خلال ألفاظه منْفَعِلاً على التَّفريط في جنب الله، بالإضافة إلى البكاء على حال نفسه؛ لأنها لم تأمنِ الهلاك بالعمل بما أمر الله سبحانه. ومن أمثلة ذلك قوله:

فَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفاً لِذَنْبِكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتَا. [22] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 80).

أمَّا "البوصيري" فيقول:

أَطَعْتُ غَيَّ الصِّبَا فِي الحَالَتِينِ وَمَا حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الآثَامِ وَالنَّدَمِ. [23] (البوصيري، 2007، ص 236).

سلك البوصيري مَسْلَكاً انفعالياً، إذْ يبدو متحسّراً على زمن الصّبا، أمَّا توظيف الأفعال المضارعة فهو خير دليل على التَّباعد بين مرحلتي التمتُّع بالصبا، والتَّمسُّك بدين الله، وصراطه المستقيم، لكن الرُّجوع إلى رضوانه ليس بالأمر الهين لدى الشيخ المنغمس في الشهوات، بَيْدَ أنَّ الألبيري لم يبلغ هذا المنتهى من الشاعريَّة؛ بدليل تركيزه على انغماس الشباب في الشهوات دون أنْ يخُصَّ نفسه بالذّكر، كما أنَّه استعمل ضمير الخطاب ليبرأ نفسه من ارتكاب المعاصي.

يزداد حث الألبيري على عدم اقتراف الذُّنوب، إذْ يقول:

وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ وَنُوقِشْتَ الحِسَابَ إِذًا هَلَكْتَا. [24] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 81).

لمْ يكشف الشَّاعر عن الذُّنوب، والمعاصي التي اقترفها في صباه، ولم يتحسر على زمن الجهالة، وكأنَّ ذلك العهد لم يترك فيه جرحاً بسبب الذُّنوب، أمَّا

(22) أبو إسحاق الألبيري، ص 80.

(23) البوصيري، ص 236.

(24) أبو إسحاق الألبيري، ص 81.

توظيف أداة الشرط (لو) فتدُلُّ على اقتراف الذُّنوب، والمعاصي التي ارتكبها الشَّاب بسبب اللهو، والترف، ومن ثمة أرْدَفَ لفظة (ذنب) بلفظة (الحساب)؛ ليُنبّه على عواقبها، في حين دلَّت لفظة (هلكت) على خيبة الأمل، وعصيان الله تعالى.

يسعى الألبيري جاهداً للتَّخلُّص من الذنوب، حتى انحصرت عباراته في حيز دلالي، يتعلق بالتوبة، لكن البوصيري سلك طريقاً لخلاص النَّفس من الذنوب، والمعاصي؛ لأنَّه يرى أنَّ المبادرة إلى التوبة أوَّلاً، ثم العمل بها ثانياً، كما أنَّ غفران الذَّنب لا يكون إلا بالتوبة، والنَّدم على ذلك، وفي هذا الصدد يقول الألبيري:

كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي وَتَجْعَلُكَ القَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا. [25] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 83).

ويقول البوصيري:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِـلَا عَمَلٍ لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِـذِي عُقُمِ.

وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الموْتِ نَافِـلَةً وَلمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضِي وَلمْ أَصُمِ. الديوان (البوصيري، 2007، ص 230).

يظهر عند البوصيري توتُّر دَلَالي يكشف على على اللُّجوء إلى الله سبحانه، وتعالى، أمَّا توظيف الفعل (أُصَلِّ) منفياً في قول يحمل دلالة قاطعة على ارتكاب الذنوب الكفيلة بتصحيحها، بالإضافة إلى تنبيه الغافل، وتحذيره، ومن ثمة أَتْبَعَ عباراته بالَّتأكيد على وجوب العمل الصالح، ومن ذلك عدم القنوط من رحمة الله، أمَّا الألبيري فكان حريصاً على تحفيز المذنب على فعْل الخيرات، وتَرْك المنكرات إذْ أَكْثر من توظيف الأفعال المضارعة المؤكدة على نتيجة الأعمال الصالحة.

(25) أبو إسحاق الألبيري، ص 83.

تحمل الأساليب الإنشائية لدى البوصيري شحنات تعبيرية، انفعالية، وعاطفية تقتضيها طبيعة التّصوُّف، المؤكدة على النصح والطلب الدَّال على تحمل العواقب، أمَّا ثِقَلُ الذنوب فيوحي بالفِتنة، حيث ذلك بالتَّوسل من خلال توظيف النِّداء في قوله:

فَيَا خَسَارَةَ نَفْسِي في تجَارَتِها لمْ تَشْتَرِ الدّينَ بِالدُّنْيَا وَلمْ تُسِمِ.[26] (البوصيري، 2007، ص 234).

يلجأُ الشَّاعر إلى مناجاة الله سبحانه، وتعالى، إذْ يحمل أسلوبه تعظيماً، هو من صميم الحالة الشعوريَّة، بالإضافة إلى الطَّمع في كرم الله، وفضْله، بالسَّعي إلى تجاوز الفتن، والموبقات المؤدّية إلى الهلاك.

يحاور الشاعر نفسه محاورة داخلية، تهدف إلى: تذكُّر يوم الحسرة؛ بالعودة إلى شرع الله الحكيم، فهنا تظهر الإثارة المعنوية المبنيَّة على تنبيه الشَّباب قبل فوات مرحلة الفتوة، وذلك بالتَّوجُّه إلى الله سبحانه، وتعالى بكثرة العبادات، والطَّاعات، ومن ثمة صوَّر الشاعر حال أهل الخير، والفلاح، وهُم تائبون، جَوَارِحُهُم مملوءةٌ بِفَيْضٍ إيماني مركزُهُ الثَّبَاتُ، والاستقرار على درب حزب الله تعالى.

كما صاحب صورة الأسف لديه بكاءٌ داخلي اعتكف بفضله على الاستغفار، حتى ظهرت تجربته بشكل جلي، مبني على الثَّقافة الدّينيَّة، ونفور النَّفس من الغرور، والضَّلال، والمحن التي كانت سبباً في هوى النفس، وصراعها الوجودي المتواصل.

(26) البوصيري، ص 234.

D. حقل الحياة والموت:

ارتكز الإبداع بصفة عامة، وإبداع الزُّهد بصفة خاصة على ثنائية الحياة، والموت، إذْ نجدها أكثر بروزاً في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿*تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ*﴾ [27]

ومن هذا المنطلق زاحمت ثنائية الحياة، والموت الفكرَ الإنساني؛ نظراً لما في الحياة من استمرار الوجود، والبقاء؛ لذلك تعدَّدت الدلالات، حسب سياق التعبير عنها؛ لأنَّ قضية الإيمان بالموت تتناقض مع حب الحياة، والاغترار بمظاهرها، كما أنَّ جوهر الشعر لدى البوصيري يتميز بالإعراض عن الحياة الفانية، ومن ثمة ازدهر الأسلوب لديه بإيثار نعيم الآخرة على الحياة الدنيا، فالزاهد يدرك حقيقة الموت، وحتميته، المكلَّلة بالثواب الحسن.

يتشكل المعجم الصُّوفي لدى البوصيري بازدراء الدُّنيا، وهجرها، والتَّخويف من الموت، وجعله وسيلة لتذكير الناس، وتنبيههم من الغفلة؛ لأنها ترتبط بهوى النفس، ومَيلها إلى ما تحبُّ، وتشتهي ومن أمثلة هذا الحقل قول الألبيري:

وَتَدْعُوكَ المنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ أَلَا يَـا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا. [28] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص 71).

يدعو الشاعر إلى عدم الانبهار، أو التَّمتع، والاغْترار بالدنيا، وملذاتها؛ لأنها مكملٌ أساسي للدين الإسلامي؛ فالإنسان في تمتُّعه بدنياه يميل إلى التَّفكير في الموت؛ لأن الدُّنيا تتقلَّب بأحوالها، إذ أنَّ التقليل من شأنها يجعل البصيرة عمياء تجاه مفاتنها، ومغرياتها.

(27) سورة الملك، الآية 01- 02.

(28) أبو إسحاق الألبيري، ص 71.

ومن أمثلة حقل الموت لدى البوصيري قوله:

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ   وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ.
وَلَا تَزَودْتُ قَبْلَ المـوْتِ نَافِلَةً   ولَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضِي وَلَمْ أَصُمِ. [29] (البوصيري، 2007، ص 229).

إن كان شأن الحياة هو الزوال، وتقلُّب الأحوال فإنَّ البوصيري راح يقرُّ بذنوب الصّبا، والاعتزال عنها، بالاستعداد ليوم الرحيل، وتلك شيمةٌ من شيَّم الناسك، والمتعبد الرَّافض للتَّمتُّع بزخرف الدُّنيا وزينتها، ومن ثمة كان لتوظيف الفعل (لم أصل)، و (لم أصم) دلالة تعبيرية تحمل في طياتها الإعراض عن الدُّنيا بالسعي نحو الفضائل والفوز بدار الفلاح، إذْ أكَّد الشاعر على الفناء، وحتميته.

يقول البوصيري:

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثَةٌ   قَدِيمَةٌ صِفَةُ المَوْصُوفِ بِالقِدَمِ.
إِنْ تَتْلُهَا خِيْفَةً مِنْ حَرِّ نَارِ لَظَى   أَطْفَأْتَ نَارَ لَظَى مِنْ وِرْدِهَا الشَّبِمِ. [30] (البوصيري، 2007، ص 235).

اعتمد النَّاظم على رصد الزمنين الماضي، والمضارع؛ لإيضاح الفكرة حيث نجد أسلوب المقارنة بين حالة الإنسان قبل الموت بموافقتها لاستخدام الأفعال الماضية، وحالته والموت يتخطفه مقرونة بتوظيف الزمن المضارع، ومن ثمة أظهر الشَّاعر صورة الإنسان المترف الذي انخدع بالدنيا، ونعيمها الزائل بالإضافة إلى ما سينجر عن تلك الحالة من عواقب دالة على المصير الآني الموحي بالرهبة، والخوف؛ لأن حالة الإنسان الماضية صاحبها غرور، وتجبُّر، وطغيانٌ منافٍ للعمل الصالح.

(29) البوصيري، ص229.
(30) البوصيري، ص 235.

تتجلى في تائية الألبيري وبردة البوصيري دَفَقَاتٌ تعبيرية مؤكدة على ثنائية الحياة والموت [31] (أمير شيشي، 2013، ص 78).

ارتبطت الحياة بشدة التَّعلق بالدُّنيا، وزخرفها، بينما ارتبط الموت، والحرص على الاستعداد له بالجنة التي وعد الله بها المتقين، ومن ثمة تضمَّنت التائية الألبيريَّة، والبردة البوصيرية ألفاظاً هادفة إلى إسداء النُّصح، والموعظة للناس أجمعين؛ كونهما تدُلَّان على التربية المؤثرة في النفوس، وإعدادها نفسياً، وخلقياً، واجتماعياً؛ حتى أنَّ تأثيرها بَدَا حاملاً لجملة من القيم، والفضائل، ذات الأثر الإيجابي.

يقول الألبيري:

فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنيا بِشَيْءٍ تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا. [32] (أبو إسحاق الألبيري، 1991، ص.ص 86 – 87).

استهلَّ الشَّاعر حديثه بحكمة بالغة؛ بتوظيف الفعل (ليست) الدَّال على النفي المتضمن أُفُول الدنيا، ثم أتْبَع ذلك بالفعل (تسوؤك) المؤكد على العواقب، والجراحات الخطيرة التي تتركها في نفسية الشَّباب اللَّاهي، بالإضافة إلى الإنذار بالعواقب الوخيمة بعد ذلك، ومن هذا المنطلق أَكْسَبَ حديثه نوعاً من المصداقية، والتأكيد على تنبيه الغافل بشرورها.

نجد البوصيري أَكْثَرَ تمسُّكاً بحبل الله المتين؛ طمعا في جنته، إذ يقول:

يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمِ.

وَالْطُفْ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَهُ صَبْراً مَتَى تَدْعُهُ الأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ. [33] (البوصيري، 2007، ص 236).

(31) ينظر، أمير شيشي، فتح الرَّزاق بشرح تائية أبي إسحاق المعروفة بمنظومة الألبيري في الآداب، د.د، د.م، ط01، 2013، ص 78.

(32) أبو إسحاق الألبيري، ص.ص 86 – 87.

ارتبطت ثنائيةُ الحياة، والموت لدى البوصيري بالرؤية الدّينية، المتناقضة مع الانغماس في ملذَّات الدُّنيا، وشهواتها، بالإضافة إلى الإحساس بخيبة الأمل، ومرارة العيش، كما أنَّ التَّأمُّل في الحياة، والموت نابعٌ من عاطفته الخلقيَّة المرتكزة على الدِّين، والنَّظر في أحوال الإنسانيَّة جمعاء، ومن ثمة نلمس في ألفاظه نوعاً من الوَلَه، والكَلَف بِكَسْبِ شفاعة المصطفى يوم الحسرة.

يزداد المعجم الصّوفي لدى البوصيري حيوية من خلال ذم الدنيا، والنظر في الموت وكأنَّه نوع من العبادة الربانية، إذْ نَتَجَت تلك الرؤى عن فلسفةٍ عميقة ذات بعد فكري وأخلاقي يحمل طابع التَّخويف من أهوال يوم الحشر، والدَّعوة إلى مجاهدة النَّفس، والتَّفكير في قضاء الله، وقدره.

على هذه الوتيرة انْبَنَى المعجم الصّوفي لدى البوصيري بفضل **تأثُّره** بأبي إسحاق الألبيري، إذ كانت الحقول السَّابقة شاهداً على ذلك، كما تظهر الألفاظ الشعريَّة مجالاً رحباً لصور الخصوبة، والغنى التعبيري، الملوَّن بإبعاد الرؤية الدينيَّة التي تَرَسَّمَ الألبيري خُطاها وقَنَّنَ البوصيري سبيلها في عصر الانحطاط مؤكداً على هيمنتها، وثباتها؛ لتماشيها مع ظروف العصر الذي غلب عليه اللَّهو، والغناء.

4. خاتمة:

يعد المعجم الصُّوفي لدى البوصيري حيزاً فلسفياً، يحاكي التجربة الإنسانية، المكسوَّة بزفرات الغنائيَّة، في تجربة وجدانية مفعمة بالطقوس الروحانية التي عاش النَّاظم في كنفها متاعب، وأوجاع مردها إلى الهواجس النفسية المليئة بالقلق، والحيرة إزاء عالم الوجود، في محاولة منه للكشف، والمساءلة الوجدانية، وعلى هذا فإنَّ أسلوبه أسلوبٌ راقٍ، ملفوف بالزهد،

(33) البوصيري، ص 236.

والتّأمل، والطّهارة المعنويَّة، والفكريَّة، التي تجاوزت الكلمات المألوفة إلى الكلمات ذات الخلق الشعري المتميز، حيث ارتقى الشَّاعر من عالم الحب إلى عالم الشوق، والهيام؛ مِنْ أجل الخلود في فَيْض المحبة الرَّبانية التي تنمو في روح التَّعدُّد الدّلالي.

تُعدُّ البردة البوصيريَّة سجلاً حافلاً بمفردات المعجم الصُّوفي، إذ تعاونت على ذلك جملةٌ من الخواص التي انفرد بها الناظم بفضل تأثره بأبي إسحاق الألبيري، وعلى ذلك نجمل نتائج البحث في النّقاط التَّاليَّة:

ركّز البوصيري على تَبْجيل الحياة الباقية من خلال الحديث عن الجنة، والنار، حيث ارتبطت الجنة بالدار الباقية في حين ارتبطت النَّار بالتمتُّع بزخرف الدُّنيا الفانيَّة.

تمحور مفهوم النَّار حول العقاب العائد إلى الجزاء الذي فرضه الله سبحانه وتعالى للتَّنفير من الأفعال الدَّنيئة، ومن ثمّة غلب على ألفاظ البوصيري طابع الزهد، بتحديد مصير الإنسان في الحياة الباقية.

شكَّل حقل التَّصوف لدى البوصيري مقدرةً لغويةً، وبراعةً فنيَّة جعلت تراكيبه مكسوة بأبعاد نفسيَّة تحمل طابع القلق، والحيرة، والخوف الذي يتجلَّى بصفة خاصة من خلال تكرار لفظة (النار) التي سيطرت على جو العمل الصُّوفي، إنْ بلفظها، وإنْ بمعناها.

وردت الأساليب في البردة البوصيرية مُرْدَفَةً بالنفي؛ للتأكيد على عدم الراحة في النَّار، أوِ التَّمتُّع بالحياة الفانية، كما ورد أسلوب الأمر مُرْدَفاً بزمن الفعل المضارع؛ للتَّأكيد على استمرار الويلات، والعذاب اللَّتين هما جزاء من الله سبحانه، وتعالى حيال التَّفريط في طاعته.

يظهر البوصيري أكثر شاعرية، ونجاح من خلال التّرغيب في الجنة، والترهيب من النار، إِذْ أَفْرَدَ لها طابعاً مخيفاً يحمل دلالة الفزع، ومن ثمة أَلْفَيْنَاهُ يُنَاجي ربَّه اعترافاً بربوبيته.

يتجلَّى الاعتراف بالربُوبية تحديداً في قول البوصيري (يا ربِّ)؛ إذْ يبدو ضعيفاً مستسلماً، ومستعطفاً؛ بتوظيفه لأسلوب النّداء الذي يريح الأفئدة، كما يظهر خوفه الشَّديد من النار، بالإضافة إلى عدم القُنوط من رحمة الله، بَلْ واجه تلك الزَّلات بالدُّعاء، والصَّبر، وطلب المغفرة في قالب من التَّذلُّل، والخضوع.

ومن الاقتراحات التي تثمّن البحث: يمكن تسمية الحقول الدَّلالية في البردة البوصيريَّة بمظاهر التَّصوُّف؛ لأنَّ العديد من الزُّهاد فرَّقواْ بين الغنى، والفقر بذمّ المال، والمبالغة في تحصيله باللجوء إلى العتاب، والجزر لمن يلهث وراء جمع الفاني؛ وهذا تفادياً للعواقب الوخيمة التي تنجر عن ذلك.

تعود فائدة المعجم الصُّوفي على أسلوب البوصيري في خلق مناخٍ ذي قدر عَالٍ من الحكمة، والرُّؤية الصائبة والنظرة الثَّاقبة التي عكست التَّجربة المعيشة في إبداعه.

يدعو النَّاظم الإنسان ضمن فلسفته الزُّهديَّة إلى القَنَاعَة، وعَدم تَتَبُّع ما لا يُرْضي الله من محرماتٍ؛ لأن الغنى لديه هو غنى النفس، وصَدِّهَا عن أفعال الشَّر، ما ظهر منها، وما بطَن، ومن ثمة كان لزاماً عليه أَنْ يُرْدِف الحديث بأسلوب الأمر حتى كسا النُّصح جميع ألفاظه، وعباراته، وهو في مقام التَّحذير من هوى النَّفس، وتبعاته.

5. قائمة المراجع:

المؤلفات:

01.أبو إسحاق، الألبيري، (1991)، الديوان، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت.

02.أمير، شيشي، (2013) فتح الرَّزاق بشرح تائية أبي إسحاق المعروفة بمنظومة الألبيري في الآداب، د.د، د.م، ط01.

03.حسن، الشافعي، (2007)، التَّصوف الإسلامي، دار السلام، القاهرة.

04.رشيد، قحطان، (1981)، اتجاهات شعر الهجاء، دار المسيرة، بيروت.

05.صافية، زفنكي، (2003)، التطورات المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة، منشورات وزارة الثقافة، سوريا.

06.صلاح، فضل، (1987)، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافيَّة العامة، بغداد.

07.علي، أحمد الخطيب، (2001)، رياض الأدب الصوفي، دار نهضة الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

08.علي، القاسمي، (د. س)، المعجمية بين النظرية والتطبيق، دار الفكر، بيروت.

09.علي، آيت أوشان، (2000)، السياق والنص الشعري - من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء.

10.فايز، الداية، (د. س)، علم الدلالة العربي – النظرية والتطبيق، دار الفكر، بيروت.

11.محمد بن سعيد، البوصري، (2007)، الديوان، دار المعرفة، بيروت.

12.محمد، مفتاح، (1985)، تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

13.نافع، محمود، (1990)، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الشؤون الثقافية العامَّة، بغداد.

المقالات:

01.شفيق، منال، (2015)، حال المتعبّد مع النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، جريدة الحياة المصريَّة، القاهرة، (ع: 3719).